

باب حِكَاهَة حَال النَّاس قَبْل المِائَة الرَّابِعَة وَبَيَان سَبَب الاختِلاف بَيْن الْأَوَّلِ وَالْآخِر فِي الانتساب إِلَى مَذَهَبٍ مِنَ الْمَذاهِب وَعَدَمِه وَبَيَان سَبَب الاختِلاف بَيْن الْعُلَمَاء فِي كَوْنِهِم مِنْ أَهْل الاجْتِهاد الْمُطْلَق أَوْ أَهْل الاجْتِهاد فِي المَذَهَب وَالْفَرَق بَيْن هَاتِينِ الْمَنْزَلَتِينِ إِعْلَم أَنَّ النَّاس كَانُوا فِي الْمِائَة الْأُولَى وَالثَّانِيَة غَيْر مُجْمِعِينَ عَلَى التَّقْلِيد لِمَذَهَبٍ وَاحِدٍ بِعِينِهِ قَالَ أَبُو طَالِبُ الْمَكِي فِي قُوَّةِ الْقُلُوبِ إِنَّ الْكِتَابِ وَالْمَجْمُوعَاتِ مُحَدَّثَةٌ وَالْقَوْلُ بِمَقَالَاتِ النَّاسِ وَالْفَتَيَا بِمَذَهَبِ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ وَاتِّخَادِ قَوْلِهِ وَالْحَكَايَةِ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَالْتَّفْقِهِ عَلَى مَذَهَبِهِ لَمْ يَكُنَ النَّاسُ قَدِيمًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقَرْنَيْنِ الْأُولِيَ وَالثَّانِيَةِ انتَهَى أَقْوَلُ وَبَعْدِ الْقَرْنَيْنِ حَدَثَ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنَ التَّخْرِيجِ غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لَمْ يَكُونُوا مُجْمِعِينَ عَلَى التَّقْلِيدِ الْخَالِصِ عَلَى مَذَهَبٍ وَاحِدٍ وَالْتَّفْقِهِ لَهُ وَالْحَكَايَةِ لِقَوْلِهِ كَمَا يَظْهُرُ مِنَ التَّبَعِ بِلْ كَانَ النَّاسُ عَلَى ذَرَجَتَيْنِ الْعُلَمَاءِ وَالْعَامَّةِ وَكَانَ مِنْ خَبَرِ الْعَامَّةِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْمَسَائِلِ الإِجْمَاعِيَّةِ الَّتِي لَا اخْتِلَافٌ فِيهَا بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ بَيْنِ جُمْهُورِ الْمُجْتَهِدِينَ لَا يَقْلِدُونَ إِلَّا صَاحِبَ الشَّرْعِ وَكَانُوا يَتَعَلَّمُونَ صَفَةَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالْحُكُمَ الْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ عُلَمَاءِ بِلَادِهِمْ فَيَمْشُونَ عَلَى ذَلِكَ وَإِذَا وَقَعَتْ لَهُمْ وَاقِعَةٌ نَادِرَةٌ اسْتَفْتُوهُمْ فِيهَا أَيِّ مَفْتُوحَةٍ وَجَدُوا مِنْ غَيْرِ تَعْبِينِ مَذَهَبَهُمْ قَالَ أَبْنُ الْهَمَامِ فِي آخرِ التَّحْرِيرِ كَانُوا يَسْتَفْتُونَ مَرَّةً وَاحِدًا وَمَرَّةً غَيْرَهُ غَيْرَ مُلْتَزِمِينَ مَفْتِيَا وَاحِدًا انتَهَى وَأَمَّا الْخَاصَّةُ الْعُلَمَاءُ فَكَانُوا عَلَى مَرَبِّيْنِ